

الباب الرابع

الجهاد بالنفس

"القتال"

obeikandi.com

فُرض القتال ، وهو الجهاد الأمثل ، وعندما يقال الجهاد فإنما يتبادر إلى الذهن القتال وهو الصحيح ، ولو كره المنافقون . فالنفس أغلى شيء عند المخلوق ، والتضحية بها ، والجهاد بها أسمى أمانى المؤمن ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) . صحيح أن الجهاد بالمال قد قُرن مع الجهاد بالنفس في كثيرٍ من آيات كتاب الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٢) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾^(٣) .

﴿لَكِنِ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ....﴾^(٤) .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٥) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلَكُم عَلَى تَجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ...﴾^(٦) .

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٨٨ .

(٦) سورة الصف : الآية ١١ .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٧ ، ويشري : يبيع .

(٣) سورة التوبة : الآية ٢٠ .

(٥) سورة الحجرات : الآية ١٥ .

سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴿١﴾ .

غير أنه عندما يكون الجهاد بالنفس (القتال) فرض عينٍ فما يُفقد الجهاد بالمال ، وما ينفع الجهاد بالدعوة ، وما يُجدي الجهاد بالصبر على الأذى وتحمل الشدة . وكان صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأغنياء ينفقون الكثير ، ولم يخطر ببال أحدهم أن يقعد ، أو يتخلف عن الغزو ، على أن ما أنفقه يُغني عنه ذلك . عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ ، أن نتصدق ، ووافق ذلك مني مالاً ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكرٍ - إن سبقته - قال : فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (ما أبقيت لأهلك ؟) قلت : مثله . وأتى أبو بكرٍ بكل ما عنده . فقال : (يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك ؟) قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً ^(٢) . فهل كان هذا يكفيه رضي الله عنه ؟ وحض رسول الله ﷺ ، أهل الغنى على النفقة في سبيل الله لتجهيز غزوة تبوك ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقةً عظيمةً لم ينفق أحد مثلاً ، فقال رسول الله ﷺ : - اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راضٍ .

ونذب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكان الذي يريد (تبوك) ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم ، وأمر الناس بالصدقة ، وحثهم على النفقة والحملان ، فجاءوا بصدقاتٍ كثيرةٍ فكان أول من جاء أبو بكر

(١) سورة النساء : الآية ٩٥ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي .

الصديق ، رضي الله عنه ، فجاء بما له كله (٤٤٠٠٠) درهم ، فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟) ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر رضي الله عنه ، بنصف ماله ، فسأله رسول الله ﷺ : (هل أبقيت لهم شيئاً ؟) قال : نعم ، نصف مالي . وجاء عبدالرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، بما تتي أوقية . وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمرٍ ، وجهّز عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، ثلث الجيش ، وجهّزهم بتسعمائة وخمسين بعيراً ، وبخمسين فرساً . قال ابن إسحاق : أنفق عثمان ، رضي الله عنه ، في ذلك الجيش نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلها . وقيل : جاء عثمان ، رضي الله عنه ، بألف دينارٍ في كمّه ، فنثرها في حجر رسول الله ﷺ فقلّبها في حجره . وهو يقول : (ماضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم) . وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (من جهّز جيش العسرة فله الجنة) .

وعن عبد الرحمن بن خباب ، قال : شهدت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يحثّ على جيش العسرة . فقام عثمان بن عفان ، فقال : يا رسول الله ، عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حصّ على الجيش ، فقام عثمان ، فقال : يا رسول الله ، عليّ ثلاثمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . فأنا رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ينزل عن المنبر ، وهو يقول : (ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا ^(١)) .

فهل يغني هؤلاء الصحابة ، رضوان الله عنهم ، ما أنفقوا ؟ لقد كانوا في أول الغزاة إذا لا تسدّ النفقة مهما بلغت وقت النفير حيث يكون الجهاد

(١) رواه الترمذي ، وأحمد .

بالنفس (القتال) فرض عين على كل قادرٍ مهما بذل من مالٍ ومهما سبق له أن دعا أو علّم ، أو ذاق من الأذى فصبر .

ثم لو كانت تغني النفقة كل حين ، لجاء وقت جلس فيه الذين تصدّقوا ، وانطلق إلى الجهاد الذين لم يجدوا ما يتصدّقون به ، فكان الناس فئات : فئة ترضى بالنفس وتجوّد بالمال ، وفئة تجوّد بالنفس تطلب الأجر ، وربما لا تجد المال . وبالتالي يحدث الانقسام ، والإسلام لا يعرف الطبقة فالناس سواسية كأَسنان المشط ، وعندما يكون الجهاد فرض عينٍ لا بد من أن ينفر الجميع لتأدية الواجب والحصول على إحدى الحسنيين بتيل الشهادة أو النصر على الأعداء والتمكين للمسلمين .

مشروعية القتال (الجهاد بالنفس) : شرع القتال للدعوة لدين الله ، وتطبيق منهجه ، والتمكين لأهله ، واختباراً لأتباعه . وشرع للقضاء على الشرك عن سطح الأرض ، ولإزالة الظلم ، ثم لردّ العدوان ، ودفع الأذى .

الفصل الأول:

الدعوة إلى الله ونشر الإسلام

خلق الله الخلق ، وبعث منهم رسلاً إلى عباده يرشدونهم إلى عبادته ، ويوجهونهم إلى دينه الذي ارتضاه لهم ، وهو الإسلام . ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ^(١) قضت حكمة الله أن يرسل في كل قوم نبياً منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكان النبي يجد من قومه العنت والمقاومة العنيفة ، وخاصةً من ساداتهم ، وأصحاب المصالح والأهواء ، فما يؤمن مع النبي إلا قليل من قومه ، ويكذبه الباقون ، ويؤذونه ، ويتطاولون عليه ، وقد يقتلونه .

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون آخر الرسل إلى الناس كافةً ، وأن تكون رسالته جامعةً لما سبقها من رسالاتٍ وناسخةً لها . وهنا يكون إبلاغ الرسالة أكثر عبثاً ، وحملها أكثر مشقةً ، وإيصالها إلى الناس

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

كافةً أكثر صعوبةً ، ويحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ بل وإلى صراعٍ عنيفٍ إذ تقف الأقوام الثانية ، وأصحاب الديانات الأخرى حسداً من عند أنفسهم وبغياً ، ويدعمهم حكام تلك الأقوام ، وسدنة تلك الديانات ، وأصحاب الأهواء ﴿ بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ علي غضبٍ وللكافرين عذاب مهين ﴾ ^(١) . ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ ^(٢) .

وقف في وجه دعوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الإسلام سادة قومه من قريش ، ورؤساء قبائل العرب ، وشرع القتال ، فقاتلهم ، عليه الصلاة والسلام ، حتى أخضعهم إما مؤمنين راضين أو بالسيف مقهورين ، وقد أرسل الكتب والرسل إلى ملوك دول تلك الأيام والأمراء ودعاهم إلى الإسلام فمنهم من استجاب وأسلم ، ومنهم ردّ رداً جميلاً ، وبعث بالهدايا ، ومنهم من قبل الدعوة غير أنه ضنّ بالملك ، وخاف رهبان ورجال الكنيسة ، ومنهم من ردّ رداً قبيحاً ، وهدد وتوعد ، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فمزق الكتاب أو قتل حامله .

وما انتهت أيام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى كان قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده . وجاء أمر الله ، وتوفي رسول الله ، فظهرت الردّة في جزيرة العرب ، وجاء الدعم للمرتدين من خارج الجزيرة من الفرس ومن الروم على حدّ سواء ، فكان لابدّ من قتال المرتدين ، ولابدّ من ردّ عدوان الذين دعموا أهل الردّة ، ثم

(١) سورة البقرة : الآية ٩٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

لابدّ من حمل رسالة الإسلام إلى الناس كافّة لتأدية المهمة الملقاة على عاتق المسؤولين في الدولة الإسلامية .

انطلقت جيوش المجاهدين فقضت على المرتدين أولاً ، ثم اتجه المجاهدون نحو الفرس والروم لتأديبهم على عدوانهم أولاً ثم لحمل رسالة الإسلام إليهم وإلى رعاياهم ، لإخراج من يريد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وتتابعت جيوش الفتوح ، وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وتتابعت الانتصارات ، واستمرّ المجاهدون يحملون الدعوة ، ويعملون على نشر الإسلام ، ببيانهم ، وبكلمة الحق ، وبأخلاقهم ، وسلوكهم ، ومعاملتهم ، ويحمون ذلك بالسيف ، ويذودون عنه بالقتال ، ويدافعون عنه بالبرهان عندما تضع الحرب أوزارها ، ويستسلم الأعداء .

ويبقى المسلمون هم الأعلون ما تمسّكوا بدينهم ، وحافظوا على إيمانهم ، ونظّفوا صفوفهم من المرجفين ، المتخاذلين ، والمنافقين ، والذين يغالطون على الرعية بما حفظوا من بعض العلم ، ومادام المسلمون على وضعهم هذا ، فالمجاهدون مرابطون في الثغور يحملون في أيديهم كتاب الله ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويطبقون أحكامه ، وينقلون ما حفظوا إلى الآخرين ، ويحملون بيدهم الثانية السيف يذودون عن حماهم ، ويحمون إسلامهم ، ويُبَلِّغون ما ائتمنوا عليه .

والمسلمون يُحبّون الخير للناس جميعاً كما يحبّونه لأنفسهم لذا فهم يدعونهم إلى الإسلام ، وهمهم الأول الدعوة لا القتال ، ولكن إذا أبى الأعداء إلا القتال فرفضوا الإسلام ، ورفضوا الصلح ودفع الجزية كان

لابدّ من استعمال السيف . وما اصطف المسلمون لقتال إلا خيروا الخصم بين ثلاث حالات :

(١) الإسلام : فإذا قبل الخصم الدخول في الإسلام ، كان الذي يريدون ، بل كانت الفرحة العارمة إذ يشعر المسلمون أنهم قد أدّوا شيئاً من المهمة المناطة بهم ، وهي إبلاغ الدعوة ، وعندها يصبح أخاً من كان أمس خصماً ، وأصبح أعداء البارحة جزءاً من الأمة الإسلامية ، لهم ما لإخوانهم الذين سبقوهم بالإسلام ، وعليهم الذي عليهم . وإنه لنصر عظيم أدّى المسلمون ما افترضه الله عليهم من الدعوة ، وحققوا الغاية دون قتال ، ونالوا إحدى الحسنيين ، وهو النصر ، مع ما حصلوا عليه من أجر الجهاد في سبيل الله .

(٢) قبول الجزية : وهذا فيما إذا كان الأعداء من أهل الكتاب أي يهود أونصارى أو من لحق بهم من المجوس ، ولا تقبل الجزية من غيرهم من الكفار ، وذلك أن أهل الكتاب ومن تبعهم يؤمنون بوجود خالقٍ ، وإن كانوا يشركون به بعض مخلوقاته ، أما المشركون عامة الذين لا يعترفون بخالقٍ فلا تقبل منهم جزية ، فليس لهم إلا الإسلام أو السيف ، أو إذا رضوا اعتناق ديانة أحد أهل الكتاب ومن يلحق بهم .

(٣) السيف : إن لم يكن هناك حلّ إلا السيف ، جرّد المسلمون سيوفهم ، ودخلوا المعركة بعزيمة وقوة يتغنون رضا الله وثوابه ، فإن صدقوا الله أتاهم نصره بإذنه ، ولا تبديل لكلمات الله : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾^(١) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾^(٢) .

(١) سورة الحج : الآية ٤٠ . (٢) سورة محمد : الآية ٧ .

ويا له من نصرٍ رائعٍ ، نصر من الله ، وكفى به نصراً ، فريق من الجانب الإسلامي نال الشهادة ، وهي أمنية كل مؤمنٍ إذ منّ الله عليه بها ، فهو مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وكان الفريق الآخر من الجانب الإسلامي قد نال الحسنى الأخرى فنصره الله على عدوّه ، ومكّن له في الأرض ، وصار فوق خصمه قاهراً له .

obeikandi.com

الفصل الثاني:

القضاء على الشرك

بعث الله الرسل ليدعوا الناس إلى عبادة الله ووحدانيته ونبذ كل شريك له أو ندًّا فأدّوا ما أرسلوا به ، فإذا قويت دعوة الرسول بدأ في مواجهة المشركين .

وبقي المشركون في جزيرة العرب حتى السنة التاسعة ، ثم نزلت سورة «التوبة» فكانت الدعوة إلى القضاء على المشركين أينما وجدوا ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد .. ﴾^(١) وهذا يدلّ على أنه لا يصحّ وجود مشركين في ديار المسلمين أبداً .

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)^(٢) .

ويخصّص بعضهم عدم وجود مشركين بأرض العرب على أنها حصن ديار الإسلام ، واعتقد أن هذا الرأي مرجوح لـ :

(١) سورة التوبة : الآية ٥ . (٢) رواه البخاري - ٢٥ .

١ - إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يدع مشركاً في أرض العرب ، ولم تتجاوز الدولة الإسلامية في أيامه أرض العرب ، فلو كانت تجاوزت وترك مشركاً خارج أرض العرب لكان ذلك حجةً ولكن لم تتجاوز . وما أنزل الله في قتال المشركين أينما وجدوا كافٍ لما ذهبنا إليه .

٢ - لا تميز بين العرب وغيرهم ، وديار الإسلام واحدة ، ولا تميز بين أقاليمها ، ولا بين شعوبها ، وعند الاعتداء على إقليمٍ منها ، أي إقليمٍ كان ، كان الجهاد قرض عينٍ .

٣ - إن خلفاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من الخلفاء الراشدين المهديين لم يتركوا مشركاً في الأمصار التي دخلتها جيوشهم ، ونحن مُلزمون بالتقيّد بأفعال الراشدين ، والتأسي بها .

٤ - إن جميع الأمصار التي دخلها المسلمون فاتحين أي زمن قوتهم وتطبيق الإسلام لم يبق فيها مشركون ، وإن الشرك الذي يوجد فيها الآن إنما جاء فيما بعد زمن ضعف المسلمين ، وسيطرة غيرهم عليهم ، وعلى أمصارهم ، وعندما أهملوا شرعهم . على حين نجد أن البلدان التي انتشر فيها الإسلام عن غير طريق الفتح ، أو زمن ضعف المسلمين قد بقي فيها مشركون .

الفصل الثالث:

القضاء على الظلم

لابدّ من تطهير الأرض من الظلم كما طُهرت من الشرك ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾^(١).

ومن المؤسف أن بعض الكتاب المعاصرين ، ركّزوا على أن هذا تدخل في شؤون الآخرين ، ونسوا :

١ - أن رسول اله ، صلى الله عليه وسلم ، بُعث للناس كافةً .

٢ - أن الأرض كلها ساحة العمل الإسلامي .

٣ - أن مساعدة المظلومين ضمن المهمة الملقاة علينا ، وهي الدعوة إلى الإسلام . فعند مساعدتهم ، يتساءلون عن سبب هذه المساعدة والدعم والتأييد ، وبالتالي يسألون عن الإسلام وتعاليمه ، ومبادئه ، فنكون قد بلّغنا الدعوة إليهم ، ثم لم يلبثوا أن يُقبلوا على الإسلام ، ويعتقونه .

(١) سورة النساء : الآية ٧٥ .

ونسي هؤلاء الكتاب الدعوة الإسلامية ، وذكروا السياسة الدولية ، ولم يعلموا أن الدول الكبرى التي تُسير السياسة الدولية هي التي تتدخل في الأمصار الإسلامية .

الفصل الرابع:

ردُّ العدوان

إذا وقع اعتداء على بلاد المسلمين أو على جزءٍ منها ، هبَّ المسلمون جميعاً لردِّ العدوان ، وكان جهادهم فرض عينٍ على كل قادرٍ ، بل قد تشترك النساء وغير المكلفين بالقتال .

وعلى المسلمين أيضاً ردُّ عدوان الأعداء إذا حدث اعتداء على جماعةٍ من المسلمين ، أو على أهل الذمّة الذين هم في ذمة المسلمين ، وعليهم حمايتهم ، أو على الذين بينهم وبين المسلمين حلف ، وذلك لتبقى للمسلمين العزة ، ولهم الهيبة في نفوس الأعداء . ولتبقى ذمتهم محفوظةً ، وعهودهم مرعيةً .

ولا يقف المسلمون موقف المدافع فقط وذلك عندما يهاجمهم الأعداء بل يقومون بالهجوم الوقائي وذلك عندما تصل إليه أخبار عن استعداد العدو للهجوم عليهم أو التفكير بذلك ، كما قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالهجوم على بني المصطلق عندما بلغه أنهم يجمعون له . وسار لقتال اليهود بخيبر لما بلغه أنه يعقدون حلفاً مع غطفان لغزو المدينة . وبعث الجيش إلى مؤتة لما قتل شرحبيل بن عمرو الغساني رسول رسول الله ﷺ ، الحارث بن عمير الأزدي . وسار إلى تبوك عندما بلغه أن الروم يجمعون جموعهم في الشام لغزو المسلمين .

إذا لا يمكن لأمةٍ في الدنيا ذات مكانةٍ ولها أعداء ، ويبلغ قاداتها أن
أعداءهم يستعدون ويتهيئون ، ويجمعون الجموع ، ويعقدون الأحلاف
لمحاربتها ، ثم ينتظر أهلها حتى يداهمهم الخصم ، ويدخل بلادهم ،
وبعدها يقومون بردّ العدوان ، والدفاع عن الديار بل لا بدّ من ضربهم قبل
استعدادهم ، وغزوهم قبل تكامل قوتهم ، وإرهابهم قبل تحرّكهم .
فما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا . لذا كان الجهاد والهجوم الوقائي
قبل أن يغزونا الأعداء .